دور المصريين فى البحرية الاسلامية،
فى القرن الاول الهجرى / السابع الميلادى ،
من خلال وثائق البردى العربى.

عبد المنعم ماجد

لاشك أن التراث البردى العربى وحده يرتبط بفترة العصور الوسطى ، التى ظهر فيها الإسلام ؛ إذا إستمر قائماً بمفرده ، بينما إنقرضت أنواع البردى الأخرى. ثم إذا ذُكر البردى بعامة ؛ فإن الخواطر تنتقل فوراً إلى مصر لأنها مهد صناعته ، حيث كان ورق البردى أداة الثقافة والمعرفة الأول ، قبل ظهور صناعة الورق فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ، وما يضفيه ذلك على الإنسان المصرى من جوهر ومضمون . فالتراث البردى العربى هو بداية لهوية مصر العربية ، التى أثرت فى حاضرها ومستقبلها .

كذلك البردى العربى للمؤرخ الإسلامى ليس آثارًا ، بقدرما هو محتوى له شأن بالحياة الإنسانية ، من منطلق حضارى وإقتصادى ومجتمعى وتاريخى ؛ إذ يُعتبر مصدراً وثائقياً هاماً قبل أن يظهر ديوان الإنشاء والمراسلات فى نظم الدولة الإسلامية ؛ حيث أُستعمل بكثرة منذ الفتح العربى لمصر ، ولمدة ثلاثة قرون هجرية على التوالى ، فى وقت حكم الولاة فيها .

ومما يؤكد على صفة البردى الوثائقية أنه فى أول أمره كان لابد أن يشتمل على ماسمى : البروتوكول (Protocolle)،وهو عبارة عن عدة أسطر تُكتب بالحبر فى شكل مزخرف ، تتضمن التاريخ وختم الدولة والصليب ، وقد يذكر إسم المصنع أيضاً . ولكن بعد ذلك ، تحول البروتوكول البيزنطى -أى اليونانى - إلى تركيبة عربية خالصة ، أُطلق عليها :(الطراز)؛ لتعنى الكتابة الوثائقية أيضاً ؛ حيث ظهرت فى مصر فى أول بردية عربية ، من عهد الوليد بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، لتشتمل على اسم الخليفة والوالى وآيات قرآنية ، وبالضرورة ترجمة قبطية للبسملة والعقيدة الاسلامية ، مع إختصار محدود فى الزخرفة ؛ كما تؤرخ بالتاريخين القبطى والهجرى .

حقاً إن طبيعة المعلومات المستمدة من البردية العربية ليست سردًا تاريخياً أو أنها مترابطة ؛ إلا أنها تُعتبر طازجة وأحياناً نادرة ؛ مما يربطها بالتركيبة التاريخية . كذلك العدد الأكبر من البردى العربى يوجد متفرقاً فى أماكن عديدة ؛ حتى أنه من الصعب معرفة عدده ، وأنه لم يكشف أغلبه عن مضمونه بعد . ومع ذلك ،فإن ما حُقق منه على يد علماء البردى ، وفى مقدمتهم أدولف جروهمان

Adolf Grohmann (١) ، أو ما ذكر منه فى الفهارس البردية،مثل ما أورده عبد الهادى شعيرة (٢) ، وغيره (٣) ، يعتبر فى غاية الأهمية فى الدراسة التاريخية .

فمن خلال البردى العربى لمعرفة دور المصريين فى البحرية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى ، من الممكن إستكشاف هذه النواحى :

أولا : صناع السفن ، ولدينا عنهم نصوص صريحة وكثيرة ، تُعتبر أوامر من قبل الوالى إلى حكام الأقاليم فى مصر ، بأن يجمعوا من قراهم " بالتعبئة (٤) " ، عناصر خبيرة فى صناعة المراكب (٥) البحرية من " نجارين " " وحدادين " (٦) ، ويكون ذلك تحت إشراف "أسطوات" (٧) ، وأن تُصرف لهم " نفقات " (٨) من خزانة الدولة ، مما يدل على تحديد أجور لهم .. وعلى مايبدو،فإن جلب بعضهم كان قسرياً ، فتوجد بردية عربية فيها أمان (٩) لأحدهم . يضاف إلى ذلك أن موارد مصر البحرية ، وضعت تحت تصرف الولاة العرب أيضاً.
ولدينا بردى عربى فيه ذكر لأدوات ضرورية لبناء المراكب ، منها : الحديد لصناعة المسامير والسلاسل (١٠) والأخشاب(١١) حيث أعتبرت شجرتا السنط واللبخ من أنسبها لبنائها ،

---

(١) يُعتبر جروهمان رائداً فى الحقل البردى العربى ، بسبب تحقيقه لأكبر مجموعة من نصوصه حتى الآن ، وله عشرة أسفار منها ، بعنوان : Arabic Paryri in the Egyptian Library. Cairo , 1934ssq .
وقد ترجمت أجزاؤه الى المجلد السادس .

(٢) بعنوان : La Documentation papyrologique arabe.. Alexendrie,1946.

(٣) مثل Catalogue of papyri in the, : Bell British Museum,IV,cf. Bell

(٤) أنظر Cheira : Op.Cit, p.61.

(٥) أنظر . Bell: Op . Cit, IV, 1379; 1410.

(٦) أنظر . Aphrodito papyri. Der Islam, : Bell II, 1957. : Bell

(٧) بردية فى : B.M.IV 1391 ؛ انظر. Cheira: Op.Cit,p.45.

(٨) أنظر . Ibid, p.62.

(٩) أنظر . Ibid, p.45.

(١٠) بردية نشرها Bell ، فى : B.M.IV, 1369 ؛ انظر. Ibid, b. 52.

(١١) الخطط ، اص ٢٠٤ .

فالأولى لصلابة خشبها ومتانته ، والثانية لتميز ألواحها بطولها ، ولذلك كانت السلطة تقوم على حراستها • كذلك لدينا بردية عربية مؤرخة بذى الحجة عام (١) ٩٠هـ/٧٠٩م ، تبيّن أن المهرة من المصريين فى صناعة المراكب لاتقتصر خدمتهم على مصر وحدها ، وانما أرسلوا الى انحاء الامبراطورية العربية فى الشام (٢) وبرقة وغيرهما ، فهم الذين بنوا الاساطيل العربية فى أول ظهورها •

ومن ناحية أخرى ، تؤكد بردية عربية مؤرخة فى ٢٨ طوبة سنة ٨١هـ (٣) ، أن أغلب هؤلاء الصناع كانوا من القبط ، فقد كان العرب فى أول نشأة دولتهم أمة بدوية ، لا عهد لها بشئون البحر ، فهم كما وصفهم والى مصر عمرو بن العاص: "كدود على عود(٤)" • ولاشك أن القبط الذين ساعدوا (٥) العرب فى فتحهم لمصر ، كانوا أكثر من الأقباط الذين عارضوه(٦) ، وكانوا موالين لبيزنطة •

ثانيا : أماكن بناء السفن ، وسميت: بدور الصناعة ، أو دور صناعة البحر ، أو الصناعة فقط ، وهى فى ورق البردى العربى تُعتبر قواعد بحرية أيضا ، تزود السفن بالبحارة والمقاتلة ، وتشحنها بالمؤن (٧) • فكانت دور الصناعة تنتشر فى مصر فى موانيها وثغورها ، مثل (٨) : الإسكندرية ودمياط والقُلزم "Kylsma" ، ولكن أشهرها ما كان يوجد منها فى بابليون " Babâlyûn " الواقعة على النيل وكذلك نعلم من وثائق البردى العربى أنه كان أول الفتح العربى يوجد دائما تمييز بين بابليون والفسطاط ، فهذه كانت معسكرًا للقبائل العربية التى اختطت فيها ، بينما ما سقط هذا التمييز ، وأصبحت تسمية بابليون وما حولها هى الفسطاط وحدها ، وهى مصر القديمة فى وقتنا •

---

(١) بردية نشرها Becker فى : B.M.VI,1410 ، انظر Ibid, p.35.

(٢) أنظر • Ibid, p.57.

(٣) بردية فى : B.M. IV,1991 ، انظر Ibid, p.45.

(٤) الخطط ، ٣ص٣٠٨

(٥) الطبرى ، ٣ص٣٤١•

(٦) أنظر • سيده كاشف • مصر فى فجر الإسلام ، ١٩٤٧ ، ص١٠•

(٧) أنظر Cheira: Op.Cit, p.46.

(٨) أنظر • Ibid , p.39; 46 ، انظر ، صفاء حافظ ، الموانى والثغور ، القاهرة ،

وقد كانت بابليون فى الأصل حصناً رومانياً قديماً بناه الامبراطور تراجان "Trianus" عام ١٠٠م ، ثم تحول الى دار لصناعة السفن فى عهد البيزنطيين . ويدل على ذلك أنه بعد أن استولى العرب على بابليون أقام القبط المتعاونون معهم جسرًا(١) ضخماً ، لمنع السفن البيزنطية من الهرب إلى نقيوس ، فى طريقها للاسكندرية. ومع ذلك ، بقيت تسمية بابليون لفترة طويلة ، حتى أن صلاح الدين سمى فى وثائق الأوربيين باسم : صلاح الدين البابليونى : "Soldon di Babiloni" .

وتظهر أهمية بابليون كدار لصناعة السفن من أنه كانت تقع أمامها فى وسط النيل جزيرة ، حصّنها البيزنطيون لتزيد من قوة حصن بابليون، حتى أنها عُرفت فى بداية الفتح العربى باسم : بابليون (٢) أو جزيرة الصناعة ،وهى التى اشتهرت فى وقت الفاطميين باسم : جزيرة الروضة (٣) ، التى ظلت داراً لصناعة السفن ، بحيث أصبحت التسمية الشائعة الى عهد المماليك .

ثالثا : البحارة المصريون ، وكانوا فى بحرية المسلمين منذ ظهورها ، التى كانت تسير بين الشرق والغرب ،وفى حماية سواحلهم ، أوفى حماية سواحل النيل ، حيث سمعنا فى عهد الخليفة المتوكل العباسى عن أسطول مصر (٤) فعلى حسب نصوص بردية عربية ، فان البحارة المصريين كانوا عماد الأساطيل العربية ، وانطلقوا مع المقاتلة ، العرب فى فتوحاتهم ، وفى حملات الشواتى (٥) ضد البيزنطيين . ... فى بردية عربية مؤرخة فى ٤ أمشير (٦)، أى مابين يناير وفبراير عام ٧١٠م ، يطلب فيها الوالى فى مصر من أحد الحكام "Pagarque" ، أن يذكر له عدد البحارة الذين رجعوا من الحملة الأفريقية بقيادة الأمير موسى بن نصير ، حيث كانت القيادة البحرية لعطاء بن رافع .

---

(١) أنظر. Chronique de jeam Evêque. Paris,1889,p.44o.

(٢) أنظر . Cheira:Op.Cit,p.35.؛(بردية فى (B.M,IV,1410

(٣) الخطط ، ٣ص٢٨٩ .

(٤) أنظر . Cheira : Op.Cit, p.60

(٥) بردية نشرها Bell، وتوجد فى B.M.IV,1349 ! انظر Ibid,p.44-45)

(٦) بردية فى B.M.135(94)IV,13050 ؛ انظر Ibid,P.64.

وبإجمالية ، فالتحقيق العلمى للبردية العربية بمعرفة مضمونها ،على الرغم من الصعوبات الجمة ، بجعل الحياة تدب فى الأثر،وتنطلق من عقالها ، ليصبح الصامت ناطقاً .